**ادوار علم الكلام ومراحله من الإرهاصات إلى الذروة إلى الضعف :**

**المرحلة الأولى : بوادر الجدل في العقائد** :

لا يمكن في هذه المرحلة أن نتكلم عن علم الكلام ، لأنه لم يتكون بعد ، والفترة الزمنية التي تمثل هذه المرحلة هي خلافة الصحابة الأربعة إلى ما بعدها بقليل ، وبالضبط النصف الأول من القرن الأول للهجرة .

تمثل هذه المرحلة البوادر الأولى التي ساهمت في نشوء علم الكلام تمثلت في بعض الشبهات والشكوك التي كانت تُبث في داخل المسلمين من طرف بعض المندسين ، وهذه المرحلة لا تشمل زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن المسلمين في زمنه كان إيمانهم تسليمهما واعتقادا ، فلم يكن هناك جدل في العقائد لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يجيب بوحي من الله.

إلا أنه وبعد فترة الرسول عليه الصلاة والسلام ، جاء دور الصحابة الذين كانوا يجيزون الرأي في الأحكام العملية ، ويمنعون النظر في العقائد إذ اعتبروه بدعة وضلالة ، فحرموه وتوعدوا كل من يخوض في العقائد بطلانا.

أكبر الفتن في هذه المرحلة فتنة السبئية والخوارج ، أما السبئية بزعامة عبد الله بن سبأ الذي قال بإلهية علي فيما يروى عنه ، وهذه فكرة من العقائد محضة لارتباطها بوحدانية الله ومنه كان للسبئية دور في إثارة الشبه والشكوك .

أما الخوارج فقد كانوا في أول أمرهم أصحاب قضية سياسية لكن ما لبثوا أن تطورت أفكارهم إلى جدل في العقائد ، وذلك من خلال قولهم في مسألة الكفر والإيمان ، ومرتكب الكبيرة ، فقد كفر الخوارج غيرهم من المسلمين (أنظر محاضرة الخوارج ) ، بل بلغ بهم الأمر إلى تكفير بعضهم البعض ، يذكر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق أن الخوارج " افترقت عشرين فرقة كانت كل واحدة منها تكفر الأخرى " ، هذا وقد ارتبطت مسألة التكفير عندهم بالوعد والوعيد ، فقد اعتبروا أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار .

كما ظهرت فتنة أخرى في زمن الصحابة وهي فتنة القدرية ، ولعلها كانت موجودة حتى في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لقوله :" القدرية مجوس الأمة" ، والقدريون الأوائل عموما يقولون بنفي القدر و بأن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله ، وتعود هذه الفكرة في أغلب الروايات إل معبد الجهني الذي قال : " لا قدر والأمر أنف " وهو قول ينفي القدر ويستأنف علم الله ، فالله لا يعلم بالفعل إلا بعد وقوعه ، وفي هذا يقول الإسفرائيني (توفي:471هـ) :"وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية ، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي وجعد بن درهم ، وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة "[[1]](#footnote-2).

إن لهذه الأفكار وغيرها التي انتشرت بين المسلمين دور كبير في إثارة الفتن ، الأمر الذي دفع المسلمين إلى ضرورة الدفاع عن الدين الإسلامي ، فأخذ التابعون من علماء الحديث على عاتقهم مهمة الدفاع عن العقيدة في بداية الأمر ، ومن ثمة اتسعت دائرة الجدل فنشأ علم الكلام و هذه هي المرحلة الثانية من مراحله ، وتفصل ذلك فيما يلي :

**المرحلة الثانية : نشأة علم الكلام :**

نشأ علم الكلام في العهد الأمويّ ، وهذه المرحلة اشتدّ فيها الجدل حول مرتكب الكبيرة وحول الصفات والوعد والوعيد والقضاء والقدر وغيرها من مسائل العقيدة ، واتّسعت دائرة فرق الجهميّة والمشبّهة والحشويّة وتطورّت القدريّة ،كما اشتدّت فرقة الخوارج والشّيعة كذلك .

إنّ هذا الوضع كان أرضا خصبة لنشوء علم الكلام وذلك عن طريق الجدل والمناظرات بغرض الرّدّ على المشكّكين وأصحاب الشّبهات .

**المرحلة الثالثة/ مرحلة ذروة علم الكلام :**

يمكن أن نؤرّخ لهذه الفقرة من القرن" 2هـ" إلى القرن" 4هـ " وهي المرحلة الّتي عرفت نشأة فرقتين كبيرتين ومؤسّستين لعلم الكلام وهما : المعتزلة والأشاعرة إلى جانب فرقة أخرى كانت قد نشأت قبل هذا الزّمان وهي فرقة " الشّيعة " وكانت فرق الخوارج والقدريّة والجبريّة وغيرها في تطور في هذه المرحلة المهمّة من علم الكلام .

يمكن أن نميّز هذه المرحلة بخاصّيّتين أساسيّتين هما : التأسيس والتّنظير ، أمّا التّأسيس فمن حيث أنّ المتكلّمين عملوا على إنشاء بنية ومنظومة معرفيّة متكاملة في علم الكلام على مبادئ عقليّة ، ومنها تمّ استنباط التّعريف المشهور لعلم الكلام " الدّفاع عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة " ، وهو ما يجعل الدّليل العقليّ وأسلوب الجدل والحجاج والبرهان طريق علم الكلام في الدّفاع عن العقائد .

يمكن أن نوضّح هذه الفكرة الأخيرة من خلال ما يلي : إنّ الدّليل العقليّ القائم على الحجاج والجدل هو أسلوب ومنهج المتكلّمين ، إذ أنّ بداية الاشتغال في هذا العلم تفرض وجود شبهة ، والغرض منه هو نفي تلك الشّبهة وإبطالها عبر العودة إلى المرجعيّة الدّينيّة الّتي هي بمثابة مسلّمة غير قابلة للشّكّ ، وبذلك يكون الدّفاع عن المسلّمة لدرء الشّبهة بالعقل أي الانتقال من القضيّة "أ : الشّبهة" إلى القضيّة "ب : المسلّمة" يكون بالعقل ، ويمكن أن يحدث العكس فينتقل العقل من المسلّمة ثمّ يعرض الشّبهة ويقوم بعد ذلك بنفيها وإبطالها ، وكلّ ذلك يتمّ بالعقل ، فعلم الكلام إذن يعتمد على العقل في الدّفاع عن العقائد بدفع الشّبه عنها من خلال استنباط الدّليل الّذي يستمدّ من الشّرع.

إلا أنه توجد مسألة يجب أن نشير إليها هنا وهي مكانة العقل عند الفرق الكلامية ، فالمعتزلة غير الأشاعرة وغير الشيعة كذلك ، ومنه نقول أن العقل كان منهج علماء الكلام لكن بدرجات ، فالمعتزلة كان منطلقها العقل بالدرجة الأولى وهي بذلك أول من مثل المنظومة العقلية في علم الكلام التي أشرنا إليها أعلاه .

أما الأشاعرة فلا ترفض العقل بل اعتبرته منهجا أساسيا في علم الكلام ، وجعلته في المرتبة الثانية بعد الشرع ، ذلك لقصوره وعجزه في كثير من الأحيان ، كعدم قدرته على الخوض في المسائل الغيبية ، وإمكانيته في الوقوع في الخطأ فهو قبل كل شيء عقل بشري .

وعليه نستخلص أن تأسيس علم الكلام لم يتم دفعة واحدة بل كان ذلك عبر مراحل ، وتعتبر فترة القرن الثاني إلى القرن الرابع للهجرة المرحلة الأساسية لعلم الكلام فيها تأسس كعلم ، وإن شأنا الكلام عنه كمنظومة عقلية فإن ذلك كان مع المعتزلة بالدرجة الأولى .

أما من حيث التنظير فنقصد أنه في هذه المرحلة تم تدوين أمهات الكتب في علم الكلام ، إذ قامت كل فرقة بصياغة مذهبها الخاص ، ومن أهم الكتب التي نذكرها على سبيل المثال وليس الحصر : كتب واصل بن عطاء(80/131هـ) :كتاب المنزلة بين المنزلتين ، طبقات المرجئة ، كتاب التوبة ...إلخ.

أبو الهذيل العلاف من شيوخ المعتزلة عاش بين 135/225هـ: كتاب الحج ، رسالة في العدل والتوحيد والوعيد.

عمر بن عبيد من المعتزلة (ت 142هـ) : كتاب الرد على القدرية .

من الشيعة هشام بن الحكم (ت 179هـ) : كتب في الإمامة والرد على المعتزلة .

من الأشاعرة : أبو الحسن الأشعري : كتب في الرد على الفرق ، كتب مقالات الإسلاميين ، الإبانة عن أصول الديانة...إلخ .

ملاحظة :

نشير هنا إلى فريق من المسلمين لا ينتمون لأي فرقة من فرق المتكلين ، نقصد بهم أهل السنة والجماعة أو المحدثين ، كان لهؤلاء دور مهم في تطور علم الكلام ، لكن مرجعيتهم كانت شرعية خالصة ، وإن كانوا يرفضون علم الكلام ويعتبرونه بدعة إلا أن الضرورة دعتهم إلى الدفاع عن العقائد عن طريق المناظرات لدفع الشبهات عن الدين الإسلامي والتي كانت كثيرة في زمنهم .

إن علماء الحديث وعلى رأسهم أحمد بن حنبل وأبو حنيفة وكذلك الشافعي كانت مرجعيتهم القرآن والسنة منهجهم الرأي والاجتهاد ، وكانوا يتفادون التأويل خاصة في الأحاديث التي فها كلام عن العقائد ، هذه الأخيرة كانوا يكتفون بتصنيفها وتبويبها دون الاجتهاد في تأويلها.

**المرحلة الرابعة : ضعف علم الكلام وتراجعه :**

نتكلم هنا عن القرن الخامس للهجرة الذي عرف فيه علم الكلام منعرجا حرجا في طريق تطوره ، لأنه في هذه الفترة تم منعه أو بالأحرى منع الجدل في العقائد ، في هذه الفترة كانت المعتزلة في مرحلة ضعف وزوال لما لقيته من رفض ونفور من الخليفة العباسي المتوكل الذي طلب من أهل الحديث مناظرتها والرد عليها لإضعاف مذهبها ، وقد حدث ذلك فعلا ، وكان هذا قبل القرن الخامس للهجرة .

أصبح كل كلام في العقائد ممنوعا وكل من يخوض في ذلك يعاقب عقابا شديدا ، ووضع بيان من طرف الخلافة لذلك ،سمي بالصحيفة أو الوثيقة القادرية التي وضعها الخليفة العباسي القادر بالله[[2]](#footnote-3)\* ، وقد كان مضمونها تبيان عقيدة أهل السنة ، وأوامر ونواه أُلزم بها أهل الكلام ، وتم عرض الصحيفة بجمع القضاة والعلماء في دار الخليفة وقراءة كتاب " جمعه القادر بالله في مواعظ وتفاصيل أهل البصرة وفيه الرد على أهل البدع وتفسيق من قال بخلق القرآن"[[3]](#footnote-4) . ومنذ ذلك الحين منع علم الكلام وأحرقت كتب المتكلمين وعوقب كل من يحوز في مكتبته على كتب المتكلمين ، لذلك يرى بعض المؤرخين لعلم الكلام أن إرثا مهما ضاع في هذه الفترة ، ومنه أصبحت الأولوية لمذهب أهل السنة والجماعة .

1. - مصطفى عبد الرزاق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة ،ص 182.183. [↑](#footnote-ref-2)
2. \* ولد سنة 336هـ توفي 422هـ ، وُلي الخلافة سنة 381هـ ، هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن الخليفة المتوكل بن الخليفة المقتدر بن المعتضد بن أمير طلحة ، له كتاب فضائل الصحابة واكفار المعتزلة القائلين بخلق القرآن ، كان على مذهب أهل السنة والجماعة ، درس على يد فقهاء الشافعية . [↑](#footnote-ref-3)
3. ابن كثير ،البداية والنهاية . [↑](#footnote-ref-4)